الأصمعيّ : قال أعرابيٌّ : من اقتصد فى الغنى والفقر ، فقد استعدّ لنائبات الدهر .

قال : وقال أعرابيٌّ : عداوة الحكيم أقلّ عليك ضَرَراً من مودّة الجاهل منهم .

قال : وقال أعرابيٌّ : أعجزُ النّاس مَنْ قصّر فى طلب الإخوان ، وأعجز منه مَنْ ضيّع مَنْ ظَفِر به منهم .

وقال : تزوّج أعرابيٌّ إلى بعض الحاضرة ، فلمّا كان ليلة دخوله بها ، إذا هى أدماء مجدورة ، فخرج مِن البيت وهو ينشد ويقول :

زَوَّجْتَنِى أدماء مجدورةً كأنها من خَشَبِ الهيتِ
قبيحة الوجهِ لها منظرٌ يفرّ منه مَلَكُ الموتِ

قال : وجَرى بين أعرابىّ وبين امرأته كلام بالمِرْبد ، فشتمته ، فقال لها : اسكتى ، فوالله ماشَعْرُكِ بوارد[1] ، ومافوك ببارد ، ولا ثديك بناهد ، ولا بطنُك بوالد ، ولا الخير فيك بزائد ، ولا الشرّ فيك بواحد ، وما أنا لك بحامد ، ولا بعد موتك بواجد .

[مجلس للأصمعى عند الرشيد]

ونذكر بعد ذلك حكايته المشهورة مع الرشيد ووزرائه ، ونحتمل طولها لما احتوتْ عليه من غرائب الآداب ، وكان مجالسَ مذاكرة بين أفراد ، فأظهر كلّ رجل منهم أفضلَ ما يذكر .

حدث الأصمعىّ قال : استدعانى الرّشيد فى بعض الليالى ، وقد تصرّمتْ قطعة من الليل ، فراعنى رسلُه ، ولم أفتأ أن مثلت بين يديه ، وإذا فى المجلس يحيى بن خالد وجعفر والفضل ، فلمّا لحظنى الرشيدُ استدنانى ، فدنوت منه ،

(١) الشعر الوارد : الطويل المسترسل .

فتبيّن مالبسنى من الوجل ، فقال لى : ليُفرِخ رُوعك ، فما أردناك إلا لما يُراد له مثلك ، فسكتُّ هُنيهَة إلى أن ثابت إلىّ نفسى بعد أن كادت تطير شَعاعاً ، فقال : إنى نازعتُ هؤلاء القوم فى أشعر بيت قالته العرب فى التّشبيه ، ولم يقع إجماعُنا على بيت ، فأردناك لفصل هذه القضية ، واجتناء ثمرة الخِطَار[1] فيها . فقلت : يا أميرَ المؤمنين، إن التنصيص على بيت واحد فى نوع واحد - قد وسعت العرب فيه ، وجعلته مَعلَما لأفكارها ، ومستراحاً لخواطرها - لَبعيدٌ أن يقع النص عليه ، ولكن أحسنُ الناس تشبيها امرؤ القيس فى قوله :

كأنّ قلوبَ الطّيرِ رَطْبًا ويابسًا لَدَى وكرها العُنّابُ والحَشَفُ البالِى[2]

وفى قوله :

كأنّ عُيونَ الوحش حولَ خبائنا وأرحلنا الجَزْع الّذى لم يثقّبِ[3]

وفى قوله :

ولو عن نَثًا غيرِه جاءنى وجُرْح اللسان كجرح اليدِ[4]

وفى قوله :

سموتُ إليها بعد ما نام أهلُها سُموّ حَباب الماء حالاً على حالِ[5]

فالتفت إلىّ يحيى ، وقال : هذه واحدة ، قد نصّ على امرئ القيس أنه أبدعهم تشبيها . قال يحيى : هى لك ياأميرالمؤمنين ، ثم قال لى الرشيد : فما أبدع تشبيهاته عندك؟ قلت : قوله يصف فرسا :

---

(١) الخطار : المراهنة
(٢) ديوانه ٣٨ ، والحشف :ردىء التمر
(٣) ديوانه ٥٢ والجزع : الخرز
(٤) ديوانه ١٨٥
(٥) ديوانه ٣١

كأن تَشَوُّفَه بالضحى تَشَوُّفُ أزرق ذى مِخْلَبِ (١)
إذا قرعته حلالٌ له تقول سلبت ولم تسلبِ

فقال : هذا حسن ، وأحسن منه قوله :

غَرُحْنَا بكأبْنِ الماء يُجْنَبُ وسطنا تصوّب فيه العَيْنُ طورًا وترتقى (٢)

فقال جعفر : يا أمير المؤمنين ، ماهذا التحكّم ؟ قال الرشيد : وكيف ؟ قال : يذكر أمير المؤمنين ما وقع اختياره عليه ، ونذكر ما اخترناه ، ويكون الحكم واقعًا بعد ، فقال الرشيد : أمرضت ، فاستحسنها - يقال : أمرض الرجل : إذا قارب الصواب - ثم قال الرشيد : بل تبدأ يايحيى ، فقال يحيى : أحسن الناس تشبيها النابغة فى قوله :

نظرتْ إليك بحاجةٍ لم تقضِها نَظَرَ السَّقيم إلى وجوهِ العُوَّد (٣)

وفى قوله :

فإنّك كاللّيلِ الّذى هو مُدْرِكى وإنْ خلتُ أنّ المنتأى منك واسِعُ (٤)

وفى قوله :

مِنْ وحش وجرة موشىٌّ أكارعُه طاوى المصير كسَيْف الصَّيْقَلِ الفرد (٥)

فقال الأصمعىّ : أما تشبيهه مرض الطّرف فحسن ، إلاّ أنه حجّنه بذكره العلة ، وتشبيهه المرأة بالعليل . وأحسن منه قول عدى بن الرقاع العاملىّ :

وكأنّها بَيْنَ النساءِ أعارها عينيه أحورُ من جآذِرِ جاسِمِ (٦)

---

(١) لم يرد هذان البيتان فى ديوانه .
(٢) ديوانه ١٧٦ وفى ط : « بكأس الماء » ، تصحيف صوابه من الديوان .
(٣) ديوانه ٣٠ .
(٤) ديوانه ٥٥ .
(٥) ديوانه ١٨ .
(٦) اللآلى ٥٢١ .

وَسْنَانُ أقصدَهُ النعاس فرنَّقتْ ... في عينِه سِنةٌ وليس بنـــائِم

وأما تشبيه الإدراك بالليل، فقد تساوى الليل والنهار فيما يدركانه، وإنما كان سبيله أن يأتيَ بما ليس له قسيم، حتى يأتي بمعنىً ينفرد به، ولو قال قائل: إنّ قول النمريّ في هذا أحسن، لوجد مساغاً إلى ذلك حيث يقول:

فلو كنتُ بالعنقاء أو بسِنامها ... لخلتك إلاّ أنْ تُصدّ ترانى

وأما قوله:

* طَـاوِى المصيرِ كَسَيْفِ الصَّيْقَلِ الفَرِدِ *

فالطرّماح أحق بهذا المعنى، لأنه أخذه فجوّده وزاد عليه، وإن كان النابغة اخترعه، وقول الطرماح:

يَبْدُو وتُضْمِرُه البـــلادُ كأنه ... سيف على شرفٍ يُسَلّ ويُغْمَدُ

فقد جمع في هذا البيت استعارة لطيفة بقوله: «وتضمره البلاد» وتشبيهه اثنين بقوله: «يبدو وتضمر» «ويسلّ ويغمد»، وجمع حسن التقسيم وصحة المقابلة.

قال الأصمعيّ: فاستبشر الرشيد وبَرَقَتْ أسارير وجهه، حتى خلتُ برقا يُومض منها، وقال ليحيى: فضلْتُك ورب الكعبة، فانقمع يحيى، فكأنّ الرّماد ذرّ على وجهه، قال الفضل: لا تعجل يا أمير المؤمنين، حتى أمرّ ما قلته بسمعه، فقال: قل، قال: أحسن الناس تشبيها طرفة في قوله:

ووجهٌ كأنّ الشمسَ ألقتْ رداءها ... عليه نقيّ اللون لم يتخدّدِ[1]

---

(١) ديوانه ٣١٠ (ضمن مجموعة مختار الشعر الجاهلي) وفي ط: «يتجدد» تحريف.

وفى قوله :

يشقُّ حَبابَ الماء حَيزومُها بهـا كما قَسَم التُّربَ المُغايلُ باليدِ[1]

قال : فقلت :هذا حَسَن وغيره أحسن منه ، قد شركه فى هذا المعنى جماعة من الشعراء ، وبعد فطرفة صاحب واحدة ، لا يُقطع بقوله مع التجوّز ، وإنما يعدّ من أصحاب الواحدة قال : ومَنْ أصحاب الواحدة؟ قلت : الحارث بن حِلِّزة فى قوله :

آذنتْنا ببينِها أسْمَـاء رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ منه الثَّواءُ[2]

والأسعر الجعفى فى قوله :

هل دان قلبك من سُلَيمى فأشتفِى ولقد عنيت بحبِّها فيما مضَى[3]

والأفوه الأودىّ فى قوله :

إنْ تَرَىْ رأسىَ فيه قَذَعٌ وشَوَانِى خَلَّةً فيها دوارُ[4]

وعلقمة فى قوله :

* طحَا بك قلبٌ فى الحِسَان طروبُ *[5]

وسويد بن أبى كاهل فى قوله :

بَسَطَتْ رابعةُ الحبلَ لنـا فوصلْنا الحبلَ منها فاتَّسَع[6]

---

(١) ديوانه ٣٠٩ .

(٢) مطلع المعلقة ٤٣٣ ـ بشرح ابن الأنبارى .

(٣) لم يرد فى مقصورته الأصمعية ٤٤ .

(٤) ديوانه ١١ (مجموعة الطرائف الأدبية)

(٥) مطلع قصيدته البائية ٤١٨ (مختار الشعر الجاهلى) وبقيته :

* يعيدَ الشَّبابَ عصرَ حان مشيبُ *

(٦) مطلع قصيدته المفضلية ص ١٩١ .

وعمرو بن كلثوم فى قوله :

ألا هُبِّى بصحنك فاصْبَحِينا ولا تُبْقِى خُمورَ الأندرينا[1]

وعمرو بن معد يكرب فى قوله :

أمِنْ ريحانَةَ الدّاعى السميعُ يُؤَرِّقنى وأصحابى هُجُوعُ[2]

فاستخفّت الرشيدَ الأريحيّة ، وقال : ادنه، فإنّك جُحَيش وحدك ، وزدتَ فى عيبى نبلا ، فقال جعفر :

* لَبِّثْ قليلا يدرك الهيجا حَمَل *

يعرّض بأنه قد يجوز أن يدرك ما يحاوله ، فقال له الرشيد : فاتتك والله السوابق، وجئت سُكَيْناً[3] ذا زوائد أربع، قال : ورأيت الحيّة فى وجهه، فقال جعفر : على شريطة حلمك . قال : أتراه يسع غيرَك ويضيق عنك ؟ فقال جعفر : لست أنصّ على شاعر واحد أنّه أحسن الناس فى بيت تشبيهاً ، ولكن قول امرئ القيس :

كأنّ غُلامِى إذْ علاَ حالَ متْنِهِ على ظهر بازٍ فى السّماء محلّقِ[4]

وقولِ عدىّ بن الرقاع :

يَتَعاوران من الغُبار ملاءةً غَبْراء محكمةً هُما نَسَجاها[5]

تُطْوَى إذا وَرَدَا مكاناً جاسياً وإذا السّنابك أسهلت نَشَراها[6]

---

(١) مطلع المعلقة ٣٧١ ـ بشرح ابن الأنبارى .

(٢) مطلع قصيدته الأصمعية ٦١ .

(٣) السكيت : مايجىء آخر الحلبة من الخيل .

(٤) ديوانه ١٧٣ .

(٥) أمالى المرتضى ١ : ١٠٣ ، ١٠٤ . وفيه : « ملاءة بيضاء »

(٦) ط : « خاسئاً » وما أثبته من أمالى المرتضى . والجاسى : الغليظ من الأرض. وأسهلت: صارت إلى سهولة الأرض .. وفى الأمالى : « إذا وطئا مكانا » .

وقول النابغة :

بأنّك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ إذا طلعتْ لم يبدُ منهنّ كوكبُ[1]

قال الأصمعيّ : قلت : هذا حسن كُلُّه بارع، وغيرُه أحسن منه ، وإنما يجب أن يقع التفاضل على ما اخترعه قائله فلم يُتعرَّض له ، أو تعرّض له شاعر ، فوقع دونه ، فأمّا قول امرئ القيس:

* على ظَهْرِ بازٍ فى السَّمَاء محلّقِ *

فمن قول أبى دواد :

إذا شاء راكبُه ضمّـــه كما ضمّ بازى السماء الجناحُ[2]

وأما قول عدى :

* يَتَعَاوران من الغُبـــارِ ملاءةً *

فمن قول الخنساء :

جارَى أباه فأقبلا وهُما يتعاوران مُلاءة الحُضْرِ[3]

وأول من نطق به جاهلى من بنى عقيل ، قال :

ألا يا ديارَ الحىّ بالبَرَدَانِ عَفَتْ حِجَجٌ بعدى لهنّ ثمانى[4]

فلم يبق منها غير نؤىٍ مهدّم وغير أثافٍ كالرَّكِى دِفانِ

وآثارهابِ أوْرق اللون سافرتْ به الرِّيح والأمطار كلّ مكانِ

---

(١) ديوانه ١٣

(٢) ديوانه ١٣ ، وفيه « إذا شاء فارسه » وفى ط : « الجناحا »

(٣) ديوانها ٢٥٩ .

(٤) خزانة الأرب ٣ : ٢٧٦ ومعجم البلدان ٥ : ٣ ، وزهر الآداب ٩٢٦ ، وتنسب هذه الأبيات إلى ابن مقبل ، كما تنسب لابن أحمر .

قِفارٌ مَرَوْرَاةٌ يَحَارُ بها القطا ويُضحى بها الجأبانِ يَعْتركان[1]
يُثيران من نَسْجِ الغُبار عليهما قميصين أسمالاً ويرتديان

وشارك عديًّا أبو النجم، وأورده فى أحسن لفظ ، قال يصف عَيْرا وأتانا وما أثاراه من الغبار بعدْوِهما :

ألْقَى بجنب القَاع من حِيالِها مربأ له وانشام فى مِرْبالِها

وأما قول النابغة :

* بأنَّك شمس والملوك كواكبُ *

فقد تقدّمه فيه شاعر قديم من شعراء كندة يمدح عمرو بن هند ، وهو أحقّ به من النابغة ؛ إذْ كان أبا عُذْرَتِه ، فقال :

كادتْ تميدالأرض بالناس إذ رأوْا لعمرو بن هند غضبةً وهو عاتبُ
هوَ الشمس وافَتْ يوم سعد فأفضلَتْ على كلّ ضوء والملوك كواكبُ

قال: فكأنّى والله ألقمت جعفراً حَجراً . فاهتزّ الرشيد فوق سريره، وكاد يطير عُجْبًا وطربًا ، وقال : والله ، لِلّهدَرّك يا أصمعىّ ، اسمع الآن ما كان وقع عليه اختيارى ، فقال : ليقل أمير المؤمنين أحسن الله توفيقه، فقالَ : عيّنت على ثلاثة أشعار ،أقسم بالله إنى أملك السبق بأحدها ، فقال يحيى: خَفّض على هينتك ، فأبى الله إلا أن يكون لك الفضل ، ثم قال الرشيد : أتعرف يا أصمعىّ تشبيهاً أفخرَ وأعظم فى أحقر مشبّه وأصغره فى أحسن معرض ، من قول عنترة الذى لم يسبقه إليه سابق ، ولا نازعه منازع ، ولا طمع فى مجاراته طامع ، حين شبّه ذباب الرّوض العازب فى قوله :

---

(١) المروراة : المفازة ، والجابان ، مثنى جأب ، وهو الحمار الغليظ من حمر الوحش .

وخلا الذبابُ بها فليس ببارحٍ غِرِدًا كفعل الشَّارب المترنِّم[1]
هزِجًا يحكُّ ذِراعَهُ بذراعِه فعلَ المُكِبِّ على الزِّناد الأجذمِ

ثم قال : يا أصمعيّ هذا من التشبيهات المُقْم التى لا تنتج ، شبّهت بالريح العقيم التى لا تُنتِج ثمرة ، ولا تلقح شجرة ، فقلت : كذلك هو يا أمير المؤمنين ، وبمجدك آليت ماسمعت قطّ أحدًا يصف شعرا بأحسن من هـــذه الصفة ، ولا استطاع بلوغ هذه الغاية ، فقال : مهلا ، لا تعجلْ أتعرف أحسن من قول الحُطيئة يصف لُغام ناقته ، أو تعلم أحدا قبله أو بعده شبّه تشبيهَهُ حيث يقول :

تَرَى بين لَحْيَيْها إذا ما تَرَغَّمَتْ لُغاما كَنَسْجِ العنكبوت الممدَّدِ[2]

فقلت: والله ماعلمتُ أحدًا تقدّمه إلى هـذا التشبيه ، أو أشار إليه بعده ولاقبله ، قال: أتعرفُ بيتًا أبدعَ وأوقعَ من تشبيه الشّماخ لنعامةٍ سقط ريشها، وبقى أثره فى قوله :

كأنّما مُنْذَنى أقماع ما مَرَطَتْ من العِفاء بِلِيتَيْهَا الثّآلِلُ[3]

فقلت : لا والله يا أمير المؤمنين ، فالتفت إلى يحيى ، فقال : أوَجَب ، فقال: وجب ، فقال : أأزيدك ؟ فقال : وأىّ خبرٍ لم يزِدْنى منه أمير المؤمنين ! قال : وقول النابغة الجعدىّ :

رمَى ضَرْع نابٍ فاستهلّ بطعنةٍ كحاشية البُرْدِ اليمانى المسهّمِ[4]

---

(١) المعلقة ٣١٤ ، ٣١٥ ـ بشرح ابن الأنبارى .
(٢) ديوانه ٢٣ ، الترغم : الصوت الضعيف . ولغام البعير زبده .
(٣) ديوانه ٢٧٨ ، أقماع : جمع قمع ، وأصله الذى على رأس التمرة . ما مرطت : ماانتفت . والعفاء : الريش .
(٤) ديوانه ١٤٣ . والناب : الناقة المسنة . والبرد المسهم : المخطط .

ثم التفت إلى الفضل ، فقال : أوجب؟ قال : وجب ، قال : أزيدك ، قال ذلك لأمير المؤمنين ، قال : قول الأعرابيّ :

به ضرب أنداد العطايا كأنّه ملاعبُ ولدانٍ تحطّ وتمضَغُ

ثم التفت إلى جعفر، فقال : أوجب ؟ قال : وجب ، قال : أزيدك ، قال : لأمير المؤمنين علوّ الرأى ، قال : قول عديّ بن الرقاع :[1]

تُزْجِي أغنّ كأنّ إبْرَةَ رَوْقِه قلم أصابَ من الدّواةِ مِدَادَهَا

فقلت : يا أمير المؤمنين،هذا بيت حَسَدَ عديًّا عليه جرير ، قال : وكيف ذلك ؟ قلت : زعم أبو عمرو بن العلاء أن جريرًا قال : لما ابتدأ عديٌّ ينشد :

* عرفَ الدِّيارَ تَوَهُّمًا فاعتادَها *[2]

فقلت فى نفسى : ركب والله مركبًا صعبًا ، سيُبْدِع فيه ، فمازال يتخلّص من حَسَنٍ إلى حسن ، إلى أن قال :

* تزجِي أغنّ كأنّ إبْرَةَ رَوْقِهِ *

فرحمتُه ، وظننت أن مادته تقْصُر به ، فلما قال :

* قلم أصابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا *

حالت الرحمةُ حَسَدًا، فقال: لله أبوك يا أصمعىّ ؟ ثم أطرق ورفع رأسَه ، وقال : أتراك تعيبنى فى انحطاطك فى هواى ؟ فقلت : كلا يا أمير المؤمنين ، إنّك لتجلّ عن ذلك ، قال : انظر خمسًا ، قلت :قد نظرت ، قال : فالسَّبْق لمنْ ؟ قلتُ : لأمير المؤمنين ، قال : فقد أسهمتُ لك فى العُشْر والعُشر كثير ، ثم

---

(١) الخبر والشعر فى الأغانى ٩ : ٢١٦ ، ٢١٧

رمى بطرفه إلى يحيى ، وقال : المال الساعة ، وأولى لك ! فما كان ساعة حتى حضرت البدَرُ بينى وبينه ، ورأيت ضوء الصبح قد غلب على ضوء الشمع ، فأشار إلى خادم على رأسه ، كم هى ؟ فقال : ثلاثة آلاف ألف درهم ، فقال : دونك احتمل ثلاثين ألفاً إلى منزلك ، ونهض عن مجلسه ، وأمر الخدَم بمعاونتى على حمله ، فكانت أسعدَ ليلة ابتسم فيها الصباح عن أحدٍ بالغنى.

فهذه الحكاية تدلّك على تبحره فى علوم العربية وسعة حفظه .

* * *

تبع ابن الرّمادى عنترَة فى قوله : « وخلا الذباب » بقوله :

وكأسٍ كريق الإلف شَعْشَعْتُها به ... وعيشى من هذا الشّراب المُشَعْشَعِ
إذا ما شربنا كأسنا صُبّ فضلُها ... على روضِنا المسمِع المتخلّعِ

وقال ابن الرومى:

وأذكى نسيمُ الروض ريعانَ ظلّه ... وغنّى مغنىٌّ الطير فيه فرجّعا
وكانتْ أهازيجُ الذباب هنا كم ... على شَدَواتِ الطير صوتا موقّعا

وكان أبوه قُريب بخلافه ، كان نذلاً خسيسا ، وكان عطاء الملك أتى بجماعة من البصرة إلى قُريب فوجدوه ملتفّاً بكساء ، نائماً للشمس ، فوكزه برجْلِه ، وصاح به : قم يا قُريب ويلك ! قال : ألقيتَ أحدًا من أهل العلم قطّ أو من أهل اللغة أو الفقهاء أو من المحدّثين ؟ قال : لا والله ، قال لِمَنْ حَضَر : اشهدُوا على ما سمعتم ، لا يقول لكم غدًا الأصمعىّ أو بعد غد : أنشَدَنى والدِى أو حَدّثنى ؛ ففضحه .

* * *

ومن حكاياته عن أبيه قال الأصمعيّ : حدثني أبي قال : أتيَ عبدُ الملك ابن مَرْوان برجل مع بعض مَنْ خرج عليه ، فقال : اضربوا عُنقَه ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، ماهذا جزائي منك، قال: وماجزاؤك ؟ قال : والله ماخرجت مع فلان إلاّ بالتطيّر لك ، وذلك أني رجل مشئوم ، ما كنت مع رجل قطّ إلا غُلِب وهُزِم ، وقد بان لك صحة ما ادّعيت به ، وكنت عليك خيرًا لك من مائة ألف معك . فضحك منه وخلّى سبيله .

وكان للأصمعيّ ابنٌ ظريف ، فقيل له يوما : أين أبوك ؟ فقال : في بيته يكْذِب على الأعراب .

ومرض الأصمعيّ فعاده أبو ربيعة ـ وكان يحب أهلَ الأدب ـ فقال له : أقرِضني خمسة آلاف درهم ، ففعل ، وقال: أنشتهي غير هذا ؟ فقال : نعم ، فصًّا حسناً ، وسيفا قاطعا ، وبِرْذونا حَسَناً وسَرْجًا محلًّى ، فبعث بذلك إليه .

وكان إسحاق[1] الموصلي يعظّمه ويقرأ عليه ، فدخل الأصمعيّ يوما على الفضل بن يحيى وإسحاق ينْشِده في صفة فرس :

كأنّه في الجلّ[2] وهو سامٍ ... مشتملٌ جاء من الحَمّامِ
يَسور بين السَّرج واللجامِ ... سور القطامى إلى الحِمَامِ[3]

فقال الأصمعيّ: هات بقيّتها ، فقال له إسحاق: ألم تقل لي :مابقي منها شيء؟ فقال: مابقيَ إلاّ عيونها . ثم أنشد بعد ذلك ثلاثين بيتاً ، فغضب إسحاق وعرّف الفضلَ قِلّةَ شكره لمعرفة ، وبخلَه بما عنده ، وأخذ يصف فضلَ أبي عبيدة وتزاهده ،وبذله لما عنده ، واشتماله على علوم العرب ، فأنفذ إليه الفضل مالاً جليلاً،

(١) الخبر والشعر في الأغاني ٥ : ٣٠٢ (بيروت) مع تصرف واختصار .
(٢) الجل للدابة ، كالثوب للانسان .
(٣) يسور : يثب . والقطامى : الصقر .

واستقدمه من البصرة ، وسعى بالأصمعيّ عند الرشيد ؛ حتى حطّ منزلته . وقال إسحاق يهجوه :

أليس من العجائب أن قِرْدًا ... أصيمِعَ باهليًا يستطيلُ
ويزعُمُ أنه قد كانَ يُفتى ... أبا عمرو ويسألُه الخليلُ
إذا ما قال: «قال أبي» عَجِبْنا ... لما يأتي به ولِمَا يَقُولُ
وجلّله عطاءُ المُلْك عاراً ... تَزُولُ الرّاسِياتُ ولا يَزُولُ
فقل لأبي ربيعة إنْ عصاني ... وحادَ به عن القَصْدِ السبيلُ
لقد ضاعت بُرودُك فاحْتَسِبْها ... وضاع القَصّ والسّيف الصّقيلُ
فأما الخمسة الآلاف فاعلمْ ... بأنك غبنها لا تستقيلُ

والأصمعيّ لا يقدح هذا القدر في جانبه ، لأنّ بعض محاسنه يغطّى على كل مساوئه .

وكان منشؤه بالبصرة ، وبها تُوفّيَ سنة تسع عشرة ومائتين وبلغ ثمانيا وثمانين سنة .

قوله : محرابي ، ومابعده في معناه ، يعني فَرْجَها . والإمام ومابعده ، يعني به ذكره . وسمّيَ محرابُ المسجد محراباً لأنه يباعد مَنْ ليس من أهله أن يقربَه ، إذْ هو أرفع مافي المسجد ، وفلان حَرْب لفلان ، أي مباعد له . والقِرَاب: وعاء من جلد يُجعل فيه السيف مع غمده . والقِراب : وعاء الزاد .

* * *

فقال لهما القاضي : أرَاكُما شَنًّا وَطَبَقَة ، وحِدَأةً وبُنْدُقَة ، فاتركْ أيّها الرّجُلُ اللّدَد ، واسْلُكْ في سَيْرِك الجَدَد . وأمّا أنتِ فكُفّي عن سِبابِه ، وقِرّي إذا أتى البيتَ مِن بابِه .

فقالت المرأةُ : واللهِ ما أَسْجُنُ عنه لِسانى، إلا إذَا كَسانى ، ولا أرفَعُ له شِرَاعى ، دُونَ إشْبَاعى . فحلف أبو زيدٍ بالمحرَّجَات الثَّلاث ، إنَّهُ لا يملِكُ سِوَى أطْمارِهِ الرَّثاث .

فنظر القاضى فى قَضيتِهما نَظَرَ الأَلْمَعِيِّ ، وَأَفْكَرَ فِكْرَةَ اللَّوْذَعِيّ . ثُمَّ أَقْبَلَ عليهما بوجهٍ قد قَطَّبَهُ ، وبِجَنٍ قد قلَبَهُ ، وقال : ألم يكفِكُما التَّسَافُهُ في مَجْلِسِ الحُكْم ، والإقدامُ على هذا الجُرْم ، حتَّى تراقَيْتُما فى فُحْشِ المُقَاذَعة ، إلى خُبْثِ المُخَادَعَة ! وايمُ الله لَقَدْ أَخْطأَتْ استُكُما الحُفْرَة ، ولم يُصِبْ سَهْمُكُما الثُّغْرَة ؛ فإنَّ أميرَ المؤمنين ، أعزَّ الله ببقائه الدِّين ، نصبَنى لأقْضِيَ بين الخُصماء ؛ لا لأقضىَ دَيْنَ الغرماء . ووَحقِّ نعمتِه الَّتِي أَحَلَّتْنِي هَذَا المحلَّ ، ومَلَّكَتْنِي العَقْدَ والحلَّ ، لئن لم تُوَضِّحَا لِي جَلِيَّةَ خَطْبِكما ، وخَبِيئَةَ خِبِّكُما ، لأنَدِّدَنَّ بكُما فى الأمْصَارِ ، ولأجعلنَّكما عِبْرَةً لأولى الأبصار .

* * *

والجَدَد : شدّة الخصومة . الجَدَد : الأرض الصلبة ، والمعنى فى قوله : اسلك فى سيرك الجدَد ، جامعها فى الفرج لا غيره ، وفى المثل : مَنْ سَلَك الجَدَد أمِنَ العثار .

قِرَى : اسكنى . البيت ، كناية عن فرجها . من بابه ، يريد ألاَّ يأخذَ الجار بالجار . وقولها : إلا إذا كسانى ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « اعْرُوا النِّساء يلزمْنَ الحِجال ».

والشِّراع : قَلْع السفينة ، وأرادت برفعه كشفَ ثيابها ورفع رجليها حين يطؤها ، وقال أبو نواس فى معناه :

ترفَّق قليلاً قد اوجعتنى وألحقتَ قُرْطِى بخَلْخالِيهْ

والقُرْط فى الأذن ، والخلخال فى الرجل ، فانظر متى يجتمعان . وقال ابن الرومى فى ذلك :

يا أحمد بن سعيد لو بَصُرْتَ بها إذا الأكفّ لساقَيْها خَلاخيلُ

وقال البحترى[1] :

لم تَخْطُ باب الدِّهْليز خارجةً إلا وخَلْخالُها مع الشَّنَفِ[2]

وقال ابن الرومىّ :

لو أنّ رجلىْ عِرْسنا يداها[2] ما أخطأتْها رحمةٌ تغشاها
قد خُلِقت مرفوعةً رِجْلاها كأنّما يستغفران اللهَ

وله أيضاً :

شيخ لنا يكنى أبا حَفْصَلِ أقْرَنُ مثل الأيّل الأفْوَلِ[3]
تَبيت فى منزله نسوةٌ يلبسْنَ ثوب الليل كالمنزلِ
يعملن فيه عملاً صالحا يرفعه الله إلى أسفل
يستغفر النّاس بأيديهمُ وهنّ يستغفرن بالأرْجُلِ

قال الأصمعىّ : قلت لأمَةٍ ظريفة : ياجارية هل فى يديك عمل ؟ قالت : لا ، ولكن فى رجل .

والمحرَّجات الثلاث : هى الطّلاق والعِتْق والمَشْى إلى مكة ، وقيل : عمد الطّلاق الثلاث ومحرّجات : فيها حَرَج ، أى إثم وضيق .

---

(١) ديوانه ١٤١١ (٢) العرس : امرأة الرجل . (٣) الأفول : الأحمق

وحدّث أبو حاتم ، عن الأصمعيّ عن عيسى بن عمر ، قال : اشتكى رجل امرأته ، فقال له شيخ من بنى نصر ، كان أسنّ منه : ألا تكشفها بالحجّاج ـ يعنى الطلاق ـ قال : قاتلك الله ! فما أغرّك ، وعلىّ الطلاق ثلاثا .

حدثنا أبو بكر محمد بن أسد الدبلىّ قال : سمعت أبا فتان الدارع يقول : الطلاق الثلاث البتّ لازم لى ، لقد سمعتُ أبا عبيدة معمر بن المثنى يقول : الطلاق الثلاث ، البَتُّ لازم لى ، لقد سمعت أبا عمرو بن العلاء ، يقول الطلاق الثلاث البتّ لازم لى ، إن كانت العرب قالت أحكم من هذه الأبيات .

كُنْ للمكاره بالعَزَاء مقنّعا ... فلعلّ يوما لا ترى ما تكرهُ

فلربّما استتر الفتى فتنافستْ ... فيه العيون وإنه لموءُ

ولربّما خزن الكريمُ لسانَه ... حذرَ الجواب وإنّه لفوّهُ

ولربما ابتسم الكريم من الأذى ... وفؤاده من حَرّه يتأوّه

قوله : أطاره الرّثاث ، أى ثيابه الخلقة . الألمعىّ : المتوقد الحاضر الذّهن . ابن الأعرابىّ : الألمعىّ : الذى إذا لمع له أوّلُ الأمر عرف آخره ، فيكتفى بظنّه دون تعيينه . واللوذعىّ : الفطِن الذّكىّ الظريف الحديد الفؤاد . قطّبه : عبّسه . مجنّ : تُرْس . وقلبه ، كناية عن إبداء الشرّ بعد الخير ، وقد تقدّم . التّسافُه : الإلخاش . والشّتم . الجُرْم : الذنب . المقاذعة : المشاتمة بما فحش . الثُّغرة : الحفيرة فى أصل العُنُق . خِبّكما : خداعكما وغشّكما . أندّدنّ : أسمع الناس بما يغالكما عندى من المكروه ، وندّدَ به : شتمه وأسمعه القبيح . الأمصار : البلاد . عبرة : موعظة . أولى الأبصار : أهل العقول .

* * *

فأطرقَ أبو زيدٍ إطراقَ الشُّجـــاعِ ، ثم قال له : سَماعِ سَماعِ :

أنا السَّرُوجيّ وَهَذِى عِرْسِى ... وَلَيْسَ كُفْءاً البدرِ غيرُ الشَّمْسِ
وما تنـافى أُنْسُهـا وَأُنسى ... ولا تَنـاءى دِيرُها عَنْ قُسِّى
ولاعَدَتْ سُقْيَايَ أَرْضَ غرْسِى ... لَـكِنَّا مُنْذ ليـالٍ خمسِ
نُصْبِـحُ فى ثوبِ الطَّوَى وَنُمسى ... لانعرفُ المضغَ ولا التَّحَسِّى
حَتى كأَنَّا لِخُفُوتِ النَّفْسِ ... أَشْبَاحُ مَوْتَى نُشِرُوا من رَمْسِ
فحِينَ عَزَّ الصَّـــــبْرُ والتَّأَسِّى ... وَشَفَّنَا الضُّرُّ الأليمُ الْمَسِّ
قُمْنَا لسَعْدِ الْجَـدِّ أو للنَّحْسِ ... هَـذَا المقَامَ لاجْتِلَابِ فَلْسِ
والْفقْرُ يُلْجِى الحرَّ حين يُرْسِى ... إلى التَّجَلِّى فِى لباسِ اللَّبْسِ
فهـذه حالِى وهـذا دَرْسِى ... فانظُرْ إلى يَوْمِى وسلْ عن أمسِى
وأمْرُ بِجَبْرِى إن تَشَا أوْ حَبْسِى ... فِى يَدَيْكَ صِحَّتِى و نُـكْسِى

• • •

أطرق : أمال رأسَه ساكتا. الشُّجاع: الحيّة. سماعِ سماع ، أى اسمع منّى ، كُفْء البدر: أى نظيره، والكفء: النَّظير والمِثل. دَيْرها: فرجها. قُسّى: ذَكَرِى. وأصل الدَّيْر للنصارى ، والقَسّ والقِسيس : عالمهم وعابدهم . عَدَتْ : جارت وخرجت عن طريقها . والسُّقْيا : الشرب ، وهى هنا مصدر بمعنى السَّقى . والتحسّى : شرب الحَسْوة ، وأراد بالمضغ والتحسّى أكلَ الخُبْز واللحم ، وحَسْو مرقه. وقيل: المضغ فى الرَّخاء والحسْو فى الشدّة ، كاستعمالهم فيها حَسْو السَّخينة

وغيرها . وعزّ: قلّ . التأسّى : الاقتداء بالغير، وقد تأسّى تأسّياً إذا اقتدى بفعل غيره وتصبّر ، وهذا بابٌ غلبت عليه الخنساء بقولها :

وَلَوْلاَ كَثْرَةُ الباكين حَوْلِي ... على إخوانهمْ لَقَتَلْتُ نفسِي[1]
وما يبكونَ مثل أخي ولكنْ ... أعزّى النّفس عنه بالتأسّي

فزاد عليه ابن العباس الرومىّ ، فى المعنى وبيّنه حتى استحقّه حيث قال :

رأيتُ الدّهرَ يجرح ثم يأسُو ... يؤسّى أو يعوّض أو ينسّى[2]
أبت نفسى الهُلاعَ لرزء شىء ... كَفَى رزءا لنفسى رزْءُ نفسِي
أتجزَعُ وحشةً لفراق إلفٍ ... وقد وَطّنتَها لحلول رَمْسِي

فذهب فى هذه الأبيات كلّ مذهب ، ثم أراد أن يُظهر ماعنده من فضل المنّة وحُسْنِ التصرف ، فقال:

يا شَبابى وأينَ منّى شبابى ... آذنتنى أيامُه بانقضابِ
وتعزّ عن الشّباب مؤسٍّ ... بمشيب اللّذّات والأصحابِ
قلت لما انتحى يَعُدّ أساه ... بمصابٍ شبابه بمصابِ
ليس تأسو كلومُ غيرى كلومِي ... مابه مابه ومابِيَ مابِي

وكرّر هذا المعنى فأحسن ماشاء ، وذهب فيه مذاهب أخرى ، فقال :

خليلىّ قد عَلّمانى بأنّى ... وأنعمْا لو أنّنى أتعلّلُ[3]
ألناس إيثارى وإلاّ فما الأسى ... وعيشكما إلاّ ضلالٌ مُضَلّلُ
وماراحة المرزُوء فى رزء غيره ... أيحمل عنه بعضَ مايتحمّلُ !
كلاّ حاملىّ أو فى الرزية مثقلٌ ... وليس معيناً مثقلَ الظّهر مثقلُ
وضربٌ من الظلم الخفىّ مكانه ... تعزّيك بالمرزوء حين تأمّلُ

(١) ديوانها ١٥٣
(٢) زهر الآداب ٩٢٩
(٣) زهر الآداب ٩٢٩ .

ولابن رشيق :

رأيتُ التعزّيَ مما يَهيجُ على المرء ساكنَ أوصابِهِ[1]
وما نال ذو أسوة سلوةً ولكن أتى الحزن من بابِهِ
تفكّر فى مثل أرزائِهِ فذكّرَه مابه مابِهِ

وقال ابن رشيق : أخذتُه من قول عمر بن أبى ربيعة :

وذو الشَّوْق القديمِ وإن تعزّى مشوقٌ حينَ يلْقىَ العاشقينا[2]

وأخذه عمر من قول مضم بن نويرة :

وقالوا أتبكى كلَّ قبر رأيتَه لِقَبْرٍ ثوى بين اللّوى والدَّكادِكِ[3]
فقلت لهمْ إنّ الأسى يَبْعَثُ البُكَا دَعُونى فهذا كلّه قبر مالكِ[4]

* * *

خُفوت : ضعف النفس من شدة الجوع ، وخَفَتْ خفوتا : ضعف وسكن ومات . والأشباح : الأشخاص ، وأصل الشَّبَحَ الشخص تُبصره على بعد ، فلا تعرف ماهو ، ويقع الشَّبح على كلّ شخص مرئىّ . نُشِروا : أحيوا . رمس : قبر ، والمسّ : لصوق جارحة بأخرى . الجَدّ : الحظ والنصيب . يُرْمى : يثبت ويقيم . التجلّى : البروز والظهور . الالتباس : التخليط . درمى : ثوبها الخَلَق .

---

(١) التنف ١٤ (٢) ديوانه ٤٠٣ ، وفيه :

* وذو القَلْبِ المُصابِ ولو تعزّى *

(٣) أمالى القالى ٢ : ١ ، وذكر قبله :

لَقَدْ لامَنِى عند القبور على البكا رفيقى لتَذْرافِ الدُّموعِ السَّوافكِ

(٤) فى الأمالى : « إن الشجا يبعث الشجا » وذكر بعده :

أَلَمْ تَرَه فيمَا يقسِّم ماله وتأوِى إليه مُرْمِلاتُ الضرائكِ ؟

الضرائك : الفقراء السيئو الحال .

الجبر : أن تُغْنِيَ الرَّجل من فقر ، أو تصلح عظمه من كَسْر ، وجبره الله : سدَّ مفاقرَه . والنُّكس : بضم النون : عَوْد المرض بعد القوّة ، ونكس نُكْساً .

• • •

فقال له القاضى : لِيَثُبْ أنسُك ، ولْتَطِبْ نفسُكَ ، فقَدْ حَقَّ ثَ أن تُغفرَ خَطِيَّتُك ، وتُوَفَّرَ عَطِيَّتُكَ . فثارتِ الزّوجة عِندَ ذلك واستطالَتْ ، وأشارت إلى الحاضِرين وقالت :

يا أهْلَ تبريزَ لَكُمْ حَاكِمٌ أَوْفَى على الحُكَّامِ تَبْرِيزَا
مافيه مِنْ عَيْبٍ سِوَى أَنَّهُ يَوْمَ النَّدَى قِسْمَتُهُ ضِيزَى
قصدتهُ والشيخُ نبغى جَنَى عُودٍ له ما زَال مَهْـــزُوزا
فسرّحَ الشَّيْخَ وَقد نَالَ مِنْ جَدْواه تخصيصاً وتمييزا
وردَّنى أخيَبَ من شـائمٍ برقاً خَفَا فى شهر تمُّوزَا
كأنَّهُ لم يَـدْرِ أَنِّى الَّتِى لَقَّنْتُ ذا الشَّيخَ الأَرَاجِيزَا
وأَنَّنى إن شِئْتُ غَادَرْتُهُ أُضْحُوكَةً فى أهل تَبْرِيزا

• • •

ليَثُبْ : أى ليرجع . تُوفَّر : تكثر . ثارت : ظهرت ، وأنشت سرّها . واستطالت : جرحت بلسانها ، وأعلتْ كلامها . أوفى : أشرف عليهم وزاد . تبريزا : ظهورا وسَبْقاً . ضِيزى : غير مستوية ، فيها بخس ونقصان ، وقد ضَاز الحاكم ، إذا جار ، وضازه يَضِيزه ضَيْزاً ، إذا نقصه ومنعه حقه . ويحكى أن مزبدًا المدنى - ويكنى أبا إسحاق - صلّى يوما ، فلمّا فرغ من صلاته قالت امرأته : اللهم

أشركني في دعائه ، فقال مزيد اللهمّ اصلبني ، فقالت امرأته: أمّا على هذا فلا، فقال ياضرّاطة ، تلك إذاً قسمةٌ ضيزى .

قوله والشيخَ : منصوب على المفعول معه . نبغي : نطلب . النَّدى : الكرم . وجَنَى العود : مايجنى من ثمره ، وأرادت كرم القاضي . مازال مهزوزاً ، أي مازال القاصدون يهزّون عودَه فيتساقط عليهم جَنَاه ، فمعنى مازال مهزوزاً ،أي مطلوب منه العطايا . جَدْواه :عطاياه . تخصيصا : ترفيعا . تمييزاً: تعييناً ، وقد تخصّص الرجل :تشبّه بالخواصّ ، وتعيّن: تشبّه بالأعيان . شائم : ناظر للبرق . خَفِيَ : لمع . تموز : يوليه بالسريانية ، وهو أشدّ الشهور حرًّا . لفنت : فهمت وحفظت . غادرته : تركته . أضحوكة : يضحك به من رآه .

* * *

قالَ : فلمّا رأى القاضي اجتراء جَنانِهما ، وانصلاتَ لِسانِهما ، علم أنّهُ قَدْ مُنِيَ مِنْهُما بالدّاء العَياء ،والدّاهيةِ الدّهياء ؛ وأنّه متى مَنَحَ أحدَ الزّوجَيْن ، وَصَرَفَ الآخرَ صِفْرَ اليدَيْن ، كانَ كَمَنْ قَضَى الدَّيْنَ بالدَّيْن ، أوْ صَلَّى المغربَ رَكْعَتَيْن . فَطَلْسَمَ وطَرْسَمَ ، واخرَنْطَمَ وَبَرْطَمَ ، وَهَمْهَمَ وَغَمْغَمَ ، ثمّ الْتَفَتَ يَمْنَةً وشامة وتَمْلمَلَ كآبَةً وَنَدَامة،وأخذ يَذُمُّ الْقضاءَ وَمَتاعِبَه ، ويُعَدِّدُ مَوَاثِبَه ونَوائِبَه ، ويُفَنِّد طالِبَهُ وَخاطِبَهُ . ثمّ تنفّسَ كما يتنفّسُ الحَريب ، وَانْتَحَبَ حتّى كادَ يفضحُه النّحيب ،وقال : إنّ هَذَا لَشَيءٌ عَجِيب ! أأُرْشَقُ فِي مَوقفٍ بِسَهْمَيْن ! أأُلزَمُ فى قضيّةٍ بِغَرْمَيْن ! أأُطِيقُ أنْ أُرْضِيَ الخَصْمين ، ومِنْ أيْنَ ومن أيْنَ !

* * *

اجتراء : إقدام وتشجّع جَنانَهما : قلبهما ، يريد أنهما لم يهاباه . انصلات لسانهما : خروجه بالكلام وطاقته بالشرّ ، وانصلت السيف : تسلّل من غِمْده وخَرَج . مُنِيَ : بُلِيَ . الدّاء العياء : الذى يعيي الطبيب . والدّاهية : كل أمر فظيع لا يُطاق . الدهياء : مبالغة وتأكيد لمعنى الدّاهية ، أى الداهية الشديدة . مَنْح : إعطاء . صِفْر : فارغ . ومَنْ قَضى الدّين بالدّين ، فكأنّه ماقضاه وأنشدوا :

إذا كنتَ تقضى الدّيْنَ بالدّيْنِ لم يكُنْ قضاء ولكن كان غُرْمًا على غُرْمِ

تململ : توجّع وتقلّب . كآبة : حزن وهمّ . شوائب : ما يكره ويخالط به . نوائبه : نوازله . يفتد : يُخطِّئ . الحريب : المحزون المسلوب ماله ، وقد حَرَبه ، إذا سلبه « فعيل » بمعنى « مفعول » . انتحب : بكى . يفضحه : يشهره . أرشق : أرمى ، والرِّشْق جملة السهام تُرْمَى مجتمعة ، وقال لبيد[1] .

فرميت القومَ رِشْقًا صائبًا ليس بالطّيْش ولا بالمفْتعلْ

وإذا وقعت السهام مجتمعة عند الغَرَض سُمِّيَت رِشْقا . القضية : القضاء والحكومة . المغرَم والغَرامة واحد .

* * *

ثمّ عَطَفَ إلى حاجِبِهِ ، المُنفِذِ لمآربه ، وقال : ماهَذا يومُ حُكْمٍ وَقَضاء ، وفَصْلٍ وَإمْضاء ؛ هذا يوم الاعْتِمام ، هَذَا يوم الاغترام ، هذا يَوْمُ الْبُحْرَان ، هذا يومُ الْخُسْرَان ، هذا يومٌ عَصيب ، هذا يومٌ نُصابُ فيه ولا نُصيب ؛ فأرِحْنِي من هَذَيْنِ المِهْذَارَيْن ، واقْطَعْ لِسانَهُمَا بدينارَيْن . ثمّ فرّق الأصحاب ، وأغلق الباب ، وأشرع

(١) ديوانه ١٩٤ ، والرشق ، بكسر الراء : أن تُرْمَى سهام كثيرة دفعة واحدة .

أَنَّهُ يومٌ مَذْموم ، وَأَنّ القاضِيَ فيه مهموم ؛ لِئلاَّ يَحْضرَنى خصُوم .

قال : فأمّنَ الحاجِبُ عَلَى دُعائِهِ ، وتباكَى لبكائِهِ ثم نَقَدَ أَبا زيدٍ وعِرْسه المِثقالَين ، وقال : أشْهَدُ إنّكُما لأَحْيَلُ الثّقَلَين ؛ ولكِن احترماَ مجالِسَ الحكّام ، واجْتَنِباَ فيهاَ فُحْشَ الكَلاَم ؛ فما كلُّ قاضٍ قاضِي تَبْريز ، ولا كُلُّ وقتٍ تُسْمَعُ الأَراجيز ، فقالاَ له : مِثْلُكَ مَنْ حَجَب ، وشُكْرُك قد وَجَب ، ونَهضاَ وَقَدْ حظِياَ بدينارين ، وأَصْلَياَ قَلْبَ القاضِي نارَين .

* * *

مآرب حوائجه . البُحْران : كالورم السابع من المَرض ، والبُحران عند الأطباء : مدافعة عظيمة تقع بين الطبيعة والعِلّة ، وبَحَرَ الرجل بحرًا ، إذا اجتهد فى العدْوِ طالبًا أو مطلوبًا ، فانقطع وضعُف . ورجل بحر : مسلول ذاهب اللحم . عَصِيب : شديد . المهذارين : الكثيرين الكلام بلا فائدة . اقطع لسانهما ، أى صِلْهما حتى ينقطع بالدينارين كلامهما ، وهذا اللفظ الذى هو قَطع اللسان بالصِّلة قد نطق به رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أعطى المؤلّفةَ قلوبهمُ من نَفْل حُنين ، مائة مائة ، وأعطى العباس بن مِرْداس أباعر ، فسخطها وقال :

أتجعَلُ نَهْبِي ونَهْبَ العُبَيْـــــد بين عُيَينة والأقْرَعِ[1]
وما كان حصنٌ ولاحابسٌ يفوقان مِرْداسَ فى مجمعِ
وما أنا دون امرىء منهما ومَنْ يُخْفَضِ اليوم لم يُرْفع

فقال صلى الله عليه وسلم : «اقطعوا عنى لسانه» . فأعطِىَ حتى رضى وقد جاء فى

(١) الشعر والشعراء ٧٤٨ .

النوادر فى حكاية ليلى الأخيلية حين قال الحجاج : ياغلام اذهب إلى فلان ، فقل له يقطع لسانها، فأمر بإحضار الحجام، فقالت: ثكلتك أمك ! إنما أمرك أن تقطع لسانى بالصِّلة ، وهى لفظة مستعملة عند مَنْ له أمرٌ ونهى .

قوله : أمِّن ، قال : آمين ، ومعناه الرغبة فى الإجابة . تباكى : استعمل البكاء . الثَّقَلَيْن : الإنس والجن، والواحد ثَقَل وثِقْل كمَثَلَ ومِثْل ، وأصله مايُحمَل من الشىء الثقيل ، فقيل لهما : ثَقَلَان ، لأنهما كالثِّقَل على الأرض . والفحش فى القول كالفاحشة فى الفعل . نهضا : تقدما . شكرك قد وجب : يقال: وَجَب البيع والحقّ، معناه وقع، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾[1] أى وقعت على الأرض وسقطت . ووجب الحائط : سقط ، ووجب قلبُه : فزع وخفق. حَظِيَا : سَيِّدا . أصْلَيَا : أوْقَدا وألْصَقا به .

(١) سورة الحج ٣٦ .

تفسير ما أودع هذه المقامة

من الألفاظ اللغوية والأمثال العربية

قوله : « لقيتُ منها عَرَقَ القِرْبة » ، هذا مَثَلٌ يُضرب لِمَنْ يَلْقَى شِدّةً من الأمْرِ الّذِى يُزاوِلُهُ ، كما أن حامِلَ القِرْبةِ يَلْقَى جَهْداً حتّى يَعْرَق .

وقوله : « جعلتُه دَبْرَ أُذُنِي » ، يعنى طرحتُه ، وهو كقوله تعالى : ﴿ فَنَبَذُوه وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ (١) .

وقوله : « أكْذَب مِنْ سَجاح » يعنى الّتى تنبَّأَتْ فى عهد مُسَيْلمة الكذاب ، وسارتْ إليه لتُناظره وتختبرَه ثم آمنتْ به ، ووهبتْ نَفْسَها له ! وهذا الاسمُ ، مبنىٌّ على الكسر ، مثل حَذَامِ وقطام ، لكونِه من الأسماء المعدُولة ، واشتقاقه من السَّجاحَة ، وهى السُّهولة ، ومن قولهم : مَلَكْتَ فأسجِحْ .

وقولها : « أكْذبُ من أبى ثُمامة » ، هذه كنية مُسيلمةِ الكذاب ، وكان تنبّأ باليمامة . وتَخْرق بها ، إلى أن سار إليه خالدُ بن الوليد رضى الله عنه فقتله .

وقوله : « لانَعِمَ عَوْنُك » . العَوْن : الحال ، والعَوْن أيضا الذِّكْر ، ويُدْعَى للبانى على أهله فيقال له : « نَعِمَ عَوْنُك » .

وقوله : « يا دفارِ يا فجارِ » . هذان الاسمان معدولان عن دَافرة وفاجرة ، والدَّفْر : النَّتْن ؛ وبه سُمِّيَت الدّنيا أم دفْر ؛ وكلّ ماسُمِّىَ بصفةٍ غالبة ، ثم عُدِل بها إلى « فعالِ » ، بُنِى على الكسر عند النداء ، كقولك : ياكَعاكِ ياخباثِ ،

(١) سورة آل عمران ١٨٧ .

يا دَفارِ يا فجارِ ، ولا يجوز استعمالُ ذلك فى غير النداء إلاّ فى ضرورة الشعر ، كقول الحطيئة :

أطوّف ما أطوّف ثم آوِى إلى بيت قعيدتُه لَكَاعِ

وأما قوله : « أحمَقُ من رِجْلة » ، فهى ضرب من الحِمْض تَنْبُت فى مجارى السُّيول فيجرفُها .

وأمّا قولها : « الأمُ من مادِر » ، فهو رَجُلٌ من بنى هلال بن عامر ؛ كان اتّخذ حَوْضاً لِسَقْىِ إبله ، فلمّا رَوِيَتْ سَلَح فيه ،ومَدَره بسَلْحِه ؛ لئلا يَنْتفع به مَنْ بعده .

وأما قولها : « أشْأَم من قاشر » ؛ فإنّه فعلٌ كان فى قبائل سعد بن زيد بن مناة بن تميم ، ما طرق إبلاً إلاّ ماتت . وقيل : المرادُ به العام الجدب ، وسُمِّىَ قاشِراً لقَشْره ما على وجْه الأرض من النبات .

وأما قولها : «أجبن من صافِر» ، فقد اختُلف فى تفسيره ، فقال بعضهم : عَنَى به كل ما يصفِرُ من الطير ، وخصّ بالجُبْن لكثرة ما يتّقيه من جوارح الجوّ ومصايد الأرض . وقيل : إنّه طائر بعَيْنِه ؛ إذا جنّه الليل تعلّق ببعض الأغصان،ولم يَزَلْ يصفِرُ طولَ ليلته خوفاً على نفسه من أن ينام فيُؤخذ . وقيل : إنه الذى يصفر بالمرأة لريبةٍ وهو يجبن وقتَ صفيره مخافة أن يُظهَر على أمره . وقيل : إنّ المُراد به فى المثل المصفورُ بِهِ ؛ وهو الّذى ينذر بالصّفير ليهرب ، فعلَى هذا القول فاعل هنا بمعنى مفعول ، كقوله تعالى : ﴿ مِنْ مَاءٍ دافِقٍ ﴾ أى مَدْفُوق وكقولهم : راحلة بمعنى مَرْحولة ، وهو كثير فى كلامهم ، وقد جاء « مفعول » بمعنى « فاعل » ، كقوله تعالى : ﴿ حِجَاباً مَستوراً ﴾ ، أى ساتراً .

وكقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴾

وأما قوله : « أَطْيَشُ من طَامِر » ، فالمُراد به البُرغوث ؛ وبسمّى طَامر ابن طامر ؛ لكثرة وُثوبه .

وأما قول القاضي : « أرَاكُما شَنًّا وطَبَقة ، وحِدَأة وبُندقة » ، فإنه أراد به أن كلاً منكما كفء لصاحبه و قاوم له . ولكل من المثلين تفسير مختلف فيه . أما شَنٌّ وطبقة ؛ فإن العلماء مختلفون فى معنى قولهم : « وافق شنٌّ طبقة » ، فقال الأكثرون : إنّهما قبيلتان ؛ فشنٌّ هو ابن أفصى بن دُعمىّ ابن جَديلة بن أسد بن رَبيعة بن نزار . وطبقةَ حيٌّ من إياد ؛ وكانت طَبَقة لا تُطاق ، فأوقعت بها شَنّ ، فانقصفتْ منها .

وقال بعضهم : كان شَنٌّ رجلاً من دُهاة العرب ، وكان ألزَمَ نفسه ألاّ يتزوّج إلاّ بامرأةٍ تلائمه ، فكان يجوبِ البلاد فى ارتياد طَلِبته ، فصاحَبَه رجلٌ فى بعض أسفاره ، فلمّا أخذ منهما السّير ، قال له شنٌّ : أتحمِلى أم أحملك ؟ فقال له الرجل : يا جاهل وهل يحمِل الرّاكب الراكب ! فأمسك وسارَا حتى أتيا على زرع ، فقال له شَنّ : أترى هذا الزّرعَ أُكِل أم لا؟ فقال له : ياجاهل ، أما تراه فى سنبله! فأمسك إلى أن استقبلتْهما جَنَازة ، فقال له شنّ : أترى صاحبها حيًّا أم لا ؟ فقال : ما رأيتُ أجهلَ منك ، أترام حَمَلوا إلى القبر حيًّا ! ثمّ إنهما وصلا إلى قرية الرجل ، فصار به إلى منزله ، وكانت له بنت تسمّى طَبَقة ، فأخذ يُطرِفها بحديث رفيقه ، فقالت له : ما نطق إلا بالصواب ، ولا أسفهتْك إلا عما يَستفهم عن مثله ذَوُو الألباب . أما قوله : أتحملنى أم أحملك ، فإنه أراد : أتحدّثنى أم أحدّثك ، حتّى نقطعَ الطريق بالحديث . وأما قوله : أترى هذا الزرع أُكِل أم لا ؟ فإنه أراد : هل استسلف أربابُه ثمنه

أم لا ! وأمّا استفهامُه عن حياة صاحب الجنازة ، فإنّه أراد به : أخلَف عَقِباً يَحيا ذِكرُه به أم لا . فلمّا خرج إلى الرّجل حدّثه بتأويل ابنه كلامه ، فَخَطبها إليه ، فزوّجه إياها ، فلمّا سارَ بها إلى قومِه وخبَروا ما فيها من الدّهاء والفِطنة قالوا : وافق شَنٌّ طَبَقة ، فسار مثلا .

وحُكِيَ عن الأصمعيّ ، سئل عن تفسير هذا المثل فقال : أظنُّ أنّ الشَّنّ وعاء من أدَم كان قد استشنّ ، فلمّا اتُّخذ له غطاء وافقه ، ضرِب فيه هذا المثل .

وأمّا حِدَأة وبندقة ؛ فإنّه يقال فى المثل المضروب لمن يفزَعُ بعدوّه أو يُبْلَى بنظيره : حدأحداً أو وراءك بندقة ؛ وكان الأصل حدأة بإثبات الهاء ، فرخّم فى النداء وقد اختلف فى المراد بهما ، فقيل : الحدأة هو الطائر المعروف ، وبُندقة الرامى .

وقيل : إنهما قبيلتان من سعد العَشيرة ، فأغارت حِدَأة - وكانت تنزل بالكوفة - على بُنْدقة ، وكانت تنزل باليمن ، فنالت منهم ، ثمّ كرّت بندقة على حِدَأة فأحت عليهم .

وروى بعضهم هذا المثل : حَدا حَدا ، غير مهموز ، على مثال عصا وقفا ، وزَعَم أنّه اسم القهوة .

وأما قوله : « أخطأتْ استكما الحفرة » ؛ فإنّه مثل يُضْرَب لمن يُخْطِىءُ فى مقصِده ويضع الشىء فى غير موضعه .

وأمّا قوله : « طلسم وطرسم » ، فمعنى طلسم كرِه وجهه ، ومعنى طرسم أطرق .

وقوله : « اخرنطم وبرطم » أى غضب وقطّب وجهه .

وقيل : معنى اخرنطم غضب مع تكبّر . ومعنى بَرْطم غضب مع تعبّس .

وأما قوله : « همهم وغمغم » أى لم يبيّن الكلام .

تم الجزء الرابع من كتاب شرح المقامات للشريشى ويليه الجزء الخامس وأوله شرح المقامة الحادية والأربعون .

فهرس المقامات

صفحة

المقامة الحادية والثلاثون الرملية . تتضمن وعظ أبى زيد للحجاج فى حال مسيرهم ، وكونه حج فى ذلك العام ماشياً . ٣ ـ ٣٥

المقامة الثانية والثلاثون الطيبية أو الحربية . تتضمن أن أبا زيد قام فقيهاً بمائة مسألة فقهية ملغزة . ٣٦ ـ ١٠٤

المقامة الثالثة والثلاثون القليسية ، تتضمن أن أبا زيد به لقوة وقام فى المسجد مكدياً . ١٠٥ ـ ١٢٢

المقامة الرابعة والثلاثون الزبيدية ، تتضمن أن أبازيد باع ولده فى صفة غلام واشتراه الحارث . ١٢٣ ـ ١٦٤

المقامة الخامسة والثلاثون الشيرازية ، تتضمن أن أبا زيد ربّ بكرا وطلب ما يجهزها به ، وكنى بذلك عن الخمر . ١٦٥ ـ ١٩٢

المقامة السادسة والثلاثون الملطية ، تتضمن ألغاز أبى زيد بالمقايضة، أى بما يماثلها من الكلام . ١٩٣ ـ ٢٢١

المقامة السابعة والثلاثون الصعدية ، تتضمن مخاصمة أبى زيد عند القاضى مع ابنه ينسبه إلى العقوق . ٢٢٢ ـ ٢٥٣

المقامة الثامنة والثلاثون المروية ، تتضمن كون أبى زيد دخل مكدياً عند الوالى فلم يجبه وتعريضه له بذلك . ٢٥٤ ـ ٢٨٨

المقامة التاسعة والثلاثون العمانية والصحارية ، تتضمن ركوب أبى زيد البحر ، وأنه كتب عزيمة الطلق للحامل فوضعت حملها . ٢٨٩ ـ ٣١٩

صفحة

المقامة الأربعون التبريزية ، تتضمن تخاصم أبي زيد وزوجته عند القاضي وأخذها منه دينارين . ٣٢٠ - ٤٢٣

استـــدراك

وقع خطأ في صفحة ١٦٥ في عنوان المقامة ،والصواب : « المقامة الخامسة والثلاثون الشيرازية» .

obeikandl.com